الماتريدية أن وجوب المعرفة بالعقل بمعنى أنه لو لم يرد به الشرع لأدركه العقل استقلالا — لوضوحه لابناء على التحسين العقلى — كما قالت المعتزلة ، والحق أن العقل لايستقل بشيء أصلا .

فتلخص أن المذاهب ثلاثة : مذهب الأشاعرة ، وهو أن الأحكام كلها ثبتت بالشرع لكن بشرط العقل — والثانى مذهب الماتريدية ، وهو أن وجوب المعرفة ثبت بالعقل دون سائر الأحكام — والثالث مذهب المعتزلة وهو أن الأحكام كلها ثبتت بالعقل — وقد علمت الفرق بين قول الماتريدية بوجوب المعرفة بالعقل وقول المعتزلة بثبوت الأحكام بالعقل ، والله الهادى إلى سواء السبيل .

الفصل الثانى

السنن العامة فى دعوة الرسل إلى الدين

من أنعم النظر فيما قصه الله تعالى فى كتابه الحكيم على رسوله الصادق الأمين من أنباء الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، يرى أنهم قد اتفقوا على دعوة أقوامهم إلى توحيد الألوهية والربوبية وإخلاص العبادة والخضوع له تعالى (توحيد الألوهية هو إفراد الله تعالى بالعبادة ، وتوحيد الربوبية هو اعتقاد أن الله تعالى رب العالمين المتصرف فى أمورهم) والإيمان باليوم الآخر ومافيه من البعث والجزاء على الأعمال ، والإيمان بالرسل من غير تفريق بين رسول ورسول ، والترغيب فى طاعة الله جل وعلا ، والترهيب من مخالفته وعصيانه ، والحث على التحلى بالأخلاق الحسنة ، والتحذير من الأخلاق السيئة — ويرى أيضاً أن جميع الرسل عليهم الصلاة والسلام كانوا يعالجون الأمراض الاجتماعية الفاشية فى أممهم — فترى نوحا وهوداً وصالحا وإبراهيم عليهم السلام يهتمون كثيراً بالتوحيد والقضاء على الشرك بشتى الوسائل ، لأن الوثنية كانت متسلطة على عقولهم ، وترى لوط عليه السلام جعل همّه فى القضاء على الفاحشة (اللواطة) لافتتان القوم بها ، وترى

شعيبا عليه السلام بعد دعوة قومه إلى التوحيد ينهاهم عن نقص الكيل والوزن ويأمرهم بايفائهما لانتشار الغش بينهم ، وترى موسى عليه السلام يعمل على انجاء الشعب الاسرائيلى من فرعون وآله الطغاة الظالمين ، لأن حال ذلك الشعب كانت حينذاك تستوجب الاسعاف أولا . كل هذا قام به الرسل مع الصبر واحتمال الأذى فى سبيل إقامة الدين . ومن هذا كله نعلم أن الداعى إلى الله تعالى ينبغى له أن يوجه همته إلى معالجة الشرور والمفاسد الفاشية فى قومه ، ويبدأ بأشدها خطراً وأكبرها ضرراً كما سيأتى بسطه . فهذه هى السنن العامة على وجه الاجمال فى دعوة الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين — وعلى الدعاة والمرشدين ، بل على كل ذى غيرة على دينه أن يرجعوا فى تعرف ذلك تفصيلا إلى كتاب (دعوة الرسل) لصاحب الفضيلة أخينا الأستاذ العلامة الشيخ محمد العدوى فهو العمدة فى هذا المقام وبالله تعالى التوفيق .

هدى سيدنا محمد صلوات الله وسلامه عليه فى نشر الدعوة

الأصول التى أقام الدعوة عليها هى : الأصل الأول الحجج البالغة

فكانت دعوته صلوات الله وسلامه عليه تقوم على الآية البينة والحجج المحكمة ، فقد اعتمد فى تبليغها ونشرها على ما يتقبله العقل السليم ويألفه الذوق ويتلمسه الوجدان ، ولا تقف دونه البديهة ولا تنكره الحقيقة — ولذا لم يعتمد فى ذلك على الخوارق ، بل كان يوجه العقول إلى الحقائق ويُهيب بها إلى التأمل فى الكون وما حوى من مظاهر الابداع والاتقان ، وفى كل شىء له آية ناطقة بلسان حالها على أنه واحد لا شريك له ، موجود كامل الوجود ، ومن كان كذلك فهو واهب الوجود لكل موجود ، يدعوهم إلى النظر فى الكائنات ليصلوا من طريق التأمل الصادق والنظر الصحيح ، والبرهان القاطع ، إلى أن خالق الأكوان على هذا الإحكام والاتقان ، ومدبرها على هذا النظام البديع ، لا بد قوى قادر وعليم حكيم ، لا يعجزه شىء ولا يعزب عن علمه مقدار ذرة فى الأرض ولا فى السماء ، منزه عن مشابهة المخلوقين ، غنى عن العالمين ،

فلا صاحبة ولا ولد « بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم » على يدى هذا الرسول الأمين ، هكذا آمن الناس بالله عن بينة ، وأشربوا فى قلوبهم عقيدة التوحيد الخالص عن عقل وروية ، وهذه هى طريقة القرآن الحكيم ، فقد جعل العقل حكما ، والبرهان أساس العلم ، وعاب التقليد وذم المقلدين ، وأنّب من يتبع الظن وقال : « إن الظن لا يغنى من الحق شيئاً » وعاب تقديس ما كان عليه الآباء ، وفرض الدعوة بالحكمة لمن يفقهها — ولم تكن معجزته صلوات الله وسلامه عليه القاهرة إلا فى القرآن وهى معجزة عقلية — كان صلوات الله وسلامه عليه يدعو إلى الله تعالى بهذه الطريقة الواضحة ، وجدير بها أن تكون مسلكه فى الدعوة، وجدير به أن يكون سبيله الدعوة إلى الله على هدى وبصيرة : « قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى وسبحان الله وما أنا من المشركين » . نقول هذه هى طريقة القرآن وسبيله الحكيم ، التى أرشد إليها المصطفى صلوات الله وسلامه عليه فى الدعوة إليه تعالى ، وسار فيها علماء السلف الصالح من بعده رضوان الله عليهم أجمعين .

فقد أمر الله تعالى بالنظر فى الكائنات والتأمل فيما فيها من دقائق الصنع وبدائع الإحكام والاتقان ، للوصول إلى هذا الغرض الأسمى ، فى آيات كثيرة من كتابه الحكيم . فقال جل وعلا : « وفى أنفسكم أفلا تبصرون » وقال : « فلينظر الإنسان مم خلق خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب » وقال : « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة ، إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون . ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم ، إن فى ذلك لآيات للعالمين ، ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله ، إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون . ومن آياته يريكم البرق خوفا وطمعاً وينزل من السماء ماء فيحيي به الأرض بعد موتها ، إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون . ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون »

وقال جل شأنه : « قل انظروا ماذا فى السموات والأرض » وقال: « أو لم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شىء » أى فيستدلوا به على قدرة صانعه ووحدانيته .

وقال جل وعلا فى التوحيد و إنكار الشرك : « فتعالى الله عما يشركون ، أيشركون ما لا يخلق شيئاً وهم يخلقون ، ولا يستطيعون لهم نصراً ولا أنفسهم ينصرون ، و إن تدعوهم إلى الهدى لا يتبعوكم سواء عليكم أدعوتموهم أم أنتم صامتون . إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين ، ألهم أرجل يمشون بها أم لهم أيد يبطشون بها أم لهم أعين يبصرون بها أم لهم آذان يسمعون بها ، قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون . إن ولي الله الذى نزّل الكتاب وهو يتولى الصالحين . والذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون » وقال تعالى : « أم اتخذوا آلهة من الأرض هم ينشرون لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون » وقال جل وعلا : « خلق السموات بغير عمد ترونها وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم و بث فيها من كل دابة وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا فيها من كل زوج كريم ، هذا خلق الله فأرونى ماذا خلق الذين من دونه ، بل الظالمون فى ضلال مبين » وما إلى ذلك من الآيات البينات على التوحيد و إنكار الشرك .

وقال فى تقرير عقيدة البعث :

« وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت بلى وعداً عليه حقاً ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون . ليبين لهم الذى يختلفون فيه ، وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين . إنما قولنا لشىء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون » . وقال : « يا أيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر فى الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ، ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ، ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد

إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً ، وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج : ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيي الموتى وأنه على كل شيء قدير ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن الله يبعث من فى القبور » قال الحسن البصرى رضى الله عنه : جاء أمية بن خلف بعظم نخر قد صار رميما ففركه حتى صار كالرماد ثم قال : يا محمد أنت تزعم أنا وآباءنا نعود إذا صرنا هكذا ؟ لقد قلت قولا عظيما ما سمعناه من غيرك ، من يحيي العظام وهى رميم ؟ فقال : « يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم ، الذى جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون . أو ليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم ، بلى وهو الخلاق العليم . إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون . فسبحان الذى بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون » فانصرف مبهوتاً . وقال عزت قدرته وجلت حكمته « قَ والقرآن المجيد . بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شيء عجيب ، أئذا متنا وكنا تراباً ذلك رجع بعيد قد علمنا ما تنقص الأرض منهم وعندنا كتاب حفيظ . بل كذبوا بالحق لما جاءهم فهم فى أمر مريج . أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج . تبصرة وذكرى لكل عبد منيب . ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد . والنخل باسقات لها طلع نضيد . رزقاً للعباد وأحيينا به بلدة ميتاً كذلك الخروج » وما إلى ذلك من الحجج البالغة ، والبراهين القاطعة ، مما يسلكه فى تقرير العقائد الإلهية ، وتوجيه الناس إلى الحقائق الواقعة ، وإثبات البعث والجزاء .

وعلى الجملة فقد أحكم الله تعالى ما شرعه بأوضح دليل ، وأبين تعليل ، وعلم رسوله الصادق الأمين ما يسلكه فى هداية الناس إلى الصراط المستقيم . ومن تتبع أخبار الداخلين فى الإسلام ، وجد الكثير منهم كان يعتنق الإسلام بمجرد

أن يعرض عليهم الإسلام ، ويتلى عليهم شىء من القرآن — أما اقتراح المعجزات والإخبار بالغيب من بعض المتعنتين فإنهم يريدون به التهكم واللجاج ، لأنه كان يطالبهم بما تقتضيه الفطرة ويقبله العقل ، وهم يطالبونه بما ليس من شأنه ، ولا من حدود وظيفته . من ذلك ماحكى الله عنهم: « وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجُر لنا من الأرض ينبوعاً أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا : أو تُسقط السماء كما زعمت علينا كِسَفاً أو تأتىَ بالله والملائكة قبيلا . أو يكونَ لكَ بيتٌ من زُخرفٍ أو ترقى فى السماء ولن نؤمِنَ لرقيِّك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه ، قل سبحانَ ربى هل كنتُ إلا بشراً رسولًا » ومنه.. « بل قالوا أضغاثُ أحلامٍ بل افتراهُ بل هوَ شاعرٌ فليأْتنا بآيةٍ كما أُرسلَ الأولون » كالناقة والعصا واليد وإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى . ومنه « يَسْأَلونكَ عَنِ السَّاعَةِ أيَّانَ مُرْساها ، قُلْ إنَّما عِلْمها عندَ ربِّى لا يجليهَا لِوَقْتِها إلا هوَ ثَقُلَت فى السَّمٰواتِ والأرضِ لاتأْتِيكُمْ إلا بغْتَةً ، يَسْأَلونَكَ كأنكَ حَفِىٌّ عنها ، قُلْ إنَّما عِلْمها عنْدَ اللهِ ولَكِنَّ أكْثرَ النَّاسِ لَا يعلَمُون » ولهذا رد عليهم بقوله « قُلْ لا أَمْلكُ لِنفْسِى نَفْعاً ولا ضرًّا إلا ماشاءَ الله ، ولو كنت أعلمُ الغَيْبَ لاستكثرت مِنَ الخيرِ وَما مَسَّنى السُّوءُ ، إن أنا إلا نذيرٌ وبشيرٌ لقومٍ يؤمِنُون » .

الثانى الأساليب الحكيمة

إن للحق والفضيلة نوراً وجمالا ساحراً جذاباً تشعر به النفوس بأصل فطرتها ، غير أن نفوساً قد انحرفت عن سنن الفطرة السليمة لسوء المنبت ، أو فساد التربية بحكم الوراثة والبيئة الرديئة ، فصارت لاتبصر نور الحق ، ولا يروقها جمال الفضيلة ، يظهر أمامها الحق واضحاً فتراه باطلا ، وتتجلى بين يديها الفضيلة فتراها رذيلة .

وأصحاب هذه النفوس القذرة تراهم بالحشرات أشبه ، يتعذر إقناعهم ويستعصى على الدعاة الناصحين علاجهم (فمن العناء سياسة الهرم ، ومن التعذيب تهذيب الذيب) لأن أمثال هؤلاء لايميلون إلى الرشد والهدى ، بل يألفون الغىّ والضلال ،

ومن هذا النوع الخبيث عصابات كثيرة مُنى بها الإسلام ، ورسول السلام صلوات الله وسلامه عليه أثناء قيامه بالدعوة ، فلم ييأس من إصلاحهم ، وكان يعالجهم وكل الطوائف بالحكمة البالغة ، والعظة النافذة ، فى الأسلوب الذى يجعلها مألوفة للعقول ، خفيفة على القلوب ، فيدعو بالبرهان الجلى ، والحجة القاطعة طلاب الحقائق ، وهم خواص القوم ذوى النفوس القوية ، و بالخطابيات المقنعة ذوى النفوس الضعيفة ، ويدعو المعاندين المجادلين بالباطل بأحسن طرق المناظرة والمجادلة ، من الرفق واللين ، تلبية لأمر مولاه « ادْعُ إلى سَبيلِ رَبِّكَ بالحِكْمَةِ والمَوْعِظَةِ الحَسَنَةِ وجادِلْهُمْ بالتى هِىَ أَحْسَنُ » فكان صلوات الله وسلامه عليه يسلك الطرق الكفيلة بنجاح دعوته ، ويورد لكل مقام مقالا يليق به ، ويخاطب كل طبقة بما يناسبها ، كما سيأتى بيانه .

فمن أساليبه الحكيمة فى الدعوة — أنه كان يُسأل عن الشىء الخاص فيجيب بما يتناوله وغيره ، حتى يكون ما أجاب به قاعدة عامة للسائل وغيره كقوله : « إن الإسلام يَجُبُّ ما قبله » فى جواب من قال له : استغفر لى . وهو رجل من بنى محارب كان يؤذى رسول الله أيام كان يعرض نفسه على القبائل ، فلما جاء ذلك الرجل فى السنة العاشرة فى وفد بنى محارب مسلماً ذكّر النبىّ بما كان يصنعه معه من الأذى ، واستعطفه بطلب المغفرة عن صنيعه ، فأجابه بما يفيد عدم المؤاخذة عن كل من اعتنق الإسلام ، أيّاً كانت سيئاته التى أسلفها قبله ، وقد كان يكفيه فى الجواب أن يقول له « غفرت لك » .

ومنها — الإيجاز إذا اقتضى الحال ذلك كما فى مكاتباته للملوك والأمراء ، والأطنابُ عند مقتضى الحال كما فى خطبه فى الحث على التزام الأحكام أو التحريض على القتال ، وتوجيه النفوس إلى التجميل بالفضائل . كما يعلم ذلك بالنظر فى خطاب الله تعالى لمشركى العرب قبل الهجرة ، وخطابه تعالى لليهود بعدها كما سيأتى إيضاحه .

ومنها — إعطاء الوسائل صورة ماتفضى إليه ، كما فى قوله صلوات الله وسلامه عليه : « من دل على خير فله مثل أجر فاعله » : رواه مسلم ، وأبو داود والترمذى

من حديث ابن مسعود . فقد صور للسامع الدلالة على فعل الخير فى صورة الفعل نفسه ، لأنهما فى الأجر سواء . وكقوله : « إن من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه ، قيل يا رسول الله كيف يلعن الرجل والديه ؟ قال : يسب الرجل أبا الرجل فيسب أباه ، ويسب أمه فيسب أمه » . رواه مسلم من حديث عبد الله ابن عمرو . فقد أعطى من يسب أبا الغير وأمه صورة من يسب والديه لأنه تسبب فى سبهما .

ومنها ضرب الأمثال وصوغ التشابيه التى تهدى إلى الحقيقة ، فإن للتمثيل أثراً كبيراً فى إظهار الحقائق الخفية ، وتقريب المعانى البعيدة ، حتى تصير واضحة مألوفة ، كقوله صلوات الله وسلامه عليه : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً » . متفق عليه من حديث أبى موسى الأشعرى . وقوله : « ترى المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى عضو منه تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » وراه البخارى من حديث النعمان بن بشير . فقد مثل المؤمنين فى تبادل المودة والرحمة والعطف بالجسد فى روابطه العضوية ، إذا اعتل عضو اعتلت باقى الأعضاء . وهكذا تكون المؤمنون الكاملون . فهو يرشدنا بهذا الأسلوب الحكيم إلى ما يجب أن يكون عليه حال المؤمنين من الاتحاد والوئام لتقوية أواصر الروابط والمحبة .

الثالث الآداب السامية

قد تكون الدعوة قوية الحجة حكيمة الأسلوب . ولكن يعوزها شىء من الأداب الراقى وحسن التصرف ، إذ لا يكفى فى الدعوة إلى الحق أن يطرق الداعى بها الأندية والمجتمعات أو يعرضها على الأفراد فى مختلف الأوقات ، دون أن يكسوها من جمال الأدب ما يجعلها حسنة السمت ، بعيدة الأثر فى نفوس السامعين ، فكم من خطيب مِصقع وفصيح مُفَوَّه ، يغشى المجالس ويزاحم الداعاة الناصحين فى الدعوة إلى الحق والفضيلة فلا يكون نصيبه إلا إعراض الناس

عن دعوته كما يعرضون عن البضاعة المزجاة ، ولو علموا العلة فى ذلك لأصلحوا أنفسهم أولا وألبسوها حلة الأدب وخلعوا على دعوتهم من هذه الحلل النفيسة ، فإن كل من يتصدى لتكميل الناقصين ، وإصلاح النفوس ، لابد أن يكون مثلا أعلى فى الاستقامة والخلق الفاضل ؛ لهذا كان رسول الله صلوات الله وسلامه عليه داعياً إلى الله بأخلاقه وأعماله قبل أن يكون داعياً بمقاله . وهذه هى الطريقة المثلى التى شيد عليها صرح الإسلام ، وأحكم بها دعائم الإيمان ، فكان صلوات الله وسلامه عليه قدوة حسنة ، وشخصية ممتازة بكل مزايا الأدب والكمال ، التى تكون فى الدعاة إلى الخير والفضيلة ، أدبه مولاه فأحسن تأديبه ، ورباه فأكمل تربيته كما قال : « أدبنى ربى فأحسن تأديبى » متفق عليه . وأثنى عليه بقوله تعالى : « وإنك لعلى خلق عظيم » وكثيراً ما كان يظهر أدبه فى أقواله وفى أعماله كالأمثلة الآتية :

١ — أنه كان يأخذ فيها بالرفق والحلم والثبات والصبر ، فكثيراً ما كان يلحقه الأذى من سفهاء المشركين فيتلقاه بالصبر الجميل ، امتثالا لقول ربه : (فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل ولا تستعجل لهم) . وكان يرميه بعض الجفاة من الأعراب بالكلمة الغليظة الخبيثة فيقابلها بالصفح والابتسام والإنعام ، تلبية لقول مولاه (فاصفح الصفح الجميل) وهو الذى لا عتاب بعده ، ثم هو بعد ذلك يعرض عليهم دعوته فى لين من القول ، معرضا عن جهل الجاهلين ، وعنت المشاغبين — وكان فى استرساله فى الدعوة إلى الله تعالى مع ثباته واحتماله مثلا يحتذى وإماما يقتدى .

٢ — تنزله مع المدعوين إلى حد أنه كان يتقدم إليهم بأجمل عبارات التلطف والمجاملة كقوله : « إنما أنا لكم مثل الوالد لولده أعلمكم » . رواه ابن ماجة عن أبى هريرة رضى الله عنه .

٣ — أنه كان لا يواجه أحداً بعينه عندما يريد أن يؤدبه أو يزجره ما دام يجد فى الموعظة العامة كفاية ، وهذا من الأدب الراقى البالغ منتهى الحكمة ، قالت

عائشة رضى الله عنها : صنع رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا فرخص فيه ، فتنزه عنه قوم فبلغه ذلك فخطب فحمد الله ثم قال : « ما بال أقوام يتنزهون عن الشيء أصنعه ، فوالله إنى لأعلمهم بالله وأشدهم له خشية » . متفق عليه . إلى غير هذا من المثل العليا فى أدبه الذى كان من أكبر الأسباب فى نجاحه فى دعوته .

الرابع السياسة الحكيمة

لقد كان لسياسته الحكيمة عظيم الأثر فى نجاح دعوته ، وإنشاء دولته ، وقوة سلطانه ، ورفعة مقامه ، إذ لم يعرف فى تاريخ السياسات البشرية أن رجلا من الساسة المصلحين فى أية أمة من الأمم ، كان له مثل هذا الأثر العظيم ومَن مِن المصلحين المبرزين سواء أكان قائدا محنكا أو مربياً حكيما ، اجتمع لديه من رجاحة العقل وأصالة الرأى وقوة العزم وصدق الفراسة ، ما اجتمع فى رسول الله محمد صلوات الله وسلامه عليه ؟ ولقد برهن على وفور ذلك كله فيه صحة رأيه ، وصواب تدبيره ، وحسن تألفه ، وأنه ما استغفل فى مكيدة ، ولا استعجز فى شديدة ، وإليك أمثلة من سياسته الحكيمة فى الدعوة إلى الله تعالى :

١ — كان صلوات الله وسلامه عليه يتحرى بالموعظة أوقات الحاجة والفراغ والنشاط إلى استماعها ، حتى لا يجعل الوعظ على الناس ركاما فيتثاقلوا عن سماعه ويفوتهم كثير من إرشاداته النافعة ، ونصائحه الغالية . قال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه : « كان النبى صلى الله عليه وسلم يتخولنا — أو قال يتحيننا — بالموعظة كراهة السآمة علينا » . متفق عليه . وقريب من هذا تشويقهم إلى العلم بالشيء الذى يريد بيانه بالاستفهام عنه ، كقوله لابن مسعود رضى الله عنه : « هل تدرى ما حق الله على عباده ؟ فقال : الله ورسوله أعلم . قال : حق الله على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا » . متفق عليه .

٢ — أنه كان يفعل الشيء فى بعض الأحيان مسايرة لمن يعلم أنه يريد فعله ، كاتخاذه خاتما من فضة نقشه (محمد رسول الله) لتوقيع رسائله إلى بعض الملوك ،

حينما أراد أن يدعوهم إلى الإسلام ، وقيل له : إنهم لا يقرءون إلا كتابا مختوما . وهذا فيما يرجع إلى العادات ، ولم يكن فى فعله جناح يستدعى تركه .

٣ — أنه قد يترك الأمر الذى لا ضرر فيه اتقاء للفتنة : كما ترك هدم الكعبة و بناءها على أساس إبراهيم ، اجتنابا لفتنة قوم كانوا حديثى عهد بجاهلية ، وقال لعائشة رضى الله عنها : « لولا قومك حديث عهد بجاهلية لأمرت بالبيت فهدم فأدخلت فيه ما أخرج منه و بلغت به قواعد إبراهيم » . متفق عليه .

٤ — تأليفة القلوب بالمال ، فكان يؤثر بعض حديثى العهد بالإسلام بجانب من المال ، للاحتفاظ بالبقاء على الهداية بالإسلام ، وهذا إذا ظهر له أن الإيمان لم يرسخ فى قلوبهم رسوخاً لا تزلزله الفتن . و إلى أمثال هؤلاء أشار صلوات الله وسلامه عليه بقوله : « ياسعد إنى لأعطى الرجل وغيره أحب إلىَّ منه ، خشية أن يكبه الله فى النار » . أخرجه البخارى . وفى رواية مسلم من حديث ابن شهاب « خشية أن يُكَبَّ فى النار على وجهه » — كبه الله لوجهه من باب رد : صرعه — أما ما كان يعطيه بعض أشراف قريش قبل الدخول فى الإسلام فليس لنشر الدعوة ، لأنها كما تعلم تعتمد قبل كل شىء على البرهان والحجة ، و إنما كان إعطاؤهم لتلافى أحقادهم ، لأن الهدايا تذهب بالأحقاد ، وتجمع القلوب إلى القلوب . وغايتها أنها تجعل النفوس متهيئة للنظر فى صدق الدعوة ، وصحة العقيدة ، فإنها تتصل بالقلوب من ناحية الآيات البينات ، والبراهين الواضحة ، وهذا النوع وما قبله هم المؤلفة قلوبهم ، وهم صنف ممن شرع الله لهم إعطاء الزكاة بآية « إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم » .

٥ — تألفه بالجاه ولطف الكلام ، كما كان فى موقفه مع الأنصار حين منَّ على رجال من قريش بكثير من المال . عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم الأنصار فقال : « أفيكم أحد من غيركم ؟ فقالوا : لا ! إلا ابن أخت لنا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن ابن أخت القوم منهم .

فقال : إن قريشاً حديثو عهد بجاهلية ومصيبة ، وإنى أردت أن أجبرهم وأتألفهم ، أما ترضون أن يرجع الناس بالدنيا وترجعون برسول الله إلى بيوتكم ؟ لو سلك الناس واديا وسلك الأنصار شعباً لسلكت شعب الأنصار » متفق عليه .

٦ — تألفه بالعفو فى موضع الانتقام ، والإحسان فى مكان الإساءة ، عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : « بعث النبى صلى الله عليه وسلم خيلا قِبلَ نجد فجاءت برجل من بنى حنيفة يقال له ثمامة بن أثال فربطوه بسارية من سوارى المسجد ، فخرج إليه النبى صلى الله عليه وسلم فقال : ما عندك يا ثُمامة ؟ فقال . عندى خير يا محمد ، إن تقتلنى تقتل ذا دم ، وإن تنعم تنعم على شاكر ، وإن كنت تريد المال فسل منه ما شئت . فتركه حتى كان الغد قال له : ما عندك يا ثمامة ؟ قال : ما قلت لك ، إن تنعم تنعم على شاكر . فتركه حتى كان بعد الغد فقال : ما عندك يا ثمامة ؟ قال : عندى ما قلت لك . فقال : أطلقوا ثمامة . فانطلق إلى نَخْل قريب من المسجد فاغتسل ثم دخل المسجد فقال : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله ! يامحمد ! والله ما كان على الأرض وجه أبغض إلى من وجهك ، فقد أصبح وجهك أحب الوجوه إلى ، والله ما كان أبغض إلى من دينك ، فأصبح دينك أحب الدين إلى — أو قال الأديان — والله ما كان بلد أبغض إلى من بلدك فأصبح بلدك أحب البلاد إلىّ » . متفق عليه . النجل : قليل الماء . وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : « كنت أمشى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليه برد نجرانى غليظ الحاشية ، فأدركه أعرابى فجبذ بردائه جبذة شديدة ، قال أنس : فنظرت إلى صفحة عاتق النبى صلى الله عليه وسلم وقد أثرت فيها حاشية الرداء من شدة جبذته ، ثم قال : يامحمد مُرْ لى من مال الله الذى عندك . فالتفت إليه فضحك ثم أمر له بعطاء » . متفق عليه .

٧ — تألفه باللين وترك الشدة فى موضع المؤاخذة — كثيراً ما كان يصادف مخالفة لأمره ، أو جحوداً لفضله ، فيقابل المخالف بالتسامح ، ويجزى الجاحد بالمزيد ،

فيحصل التآلف ، ولا يكون هناك مجال للتقاطع . فعن ابن عمر رضى الله عنهما قال : لما حاصر رسول الله صلى الله عليه وسلم الطائف فلم ينل منهم قال : « إنا قافلون إن شاء الله ، فثقل عليهم وقالوا : نذهب ولا نفتحه ؟ وقالوا مرة نقفل . فقال : اغدوا على القتال فأصابهم جراح فقال : إنا قافلون غداً إن شاء الله ، فأعجبهم ، فضحك النبي صلى الله عليه وسلم » . متفق عليه . ومن هذا القبيل ماوقع فى غزوة أحد من مخالفة الرماة لأمر الرسول بالا يبرحوا مكانهم ، ثم برحوا المكان الذى أوصاهم بملازمته ، وكان ذلك سبباً فى هزيمة جيش المسلمين ، أترى أن النبى صلوات الله وسلامه عليه آخذهم وأغلظ غليهم ؟ كلا بل قابلهم باللين والرفق ، فعفا عنهم ، ولم يقابلهم بالشدة والعنف فأثنى الله عليه لذلك بقوله تعالى : (فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك ، فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر ، فإذا عزمت فتوكل على الله ، إن الله يحب المتوكلين) فظاً : سيء الخلق . غليظ : قاسى القلب . وجملة الأمر أن القوم لما انهزموا أولا يوم أحد لم يعامل هؤلاء الرماة بالشدة والقسوة ، بل باللين والرفق . فكان هذا تحقيقاً لقوله تعالى فى مدحه (لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم) وكيف لا يكون كذلك وهو يقول صلوات الله وسلامه عليه : « لا حلم أحب إلى الله تعالى من حلم إمام ورفقه ، ولا جهل أبغض إلى الله تعالى من جهل إمام وخُرْقه » وهو بالضم ضد الرفق . وعن جرير بن عبد الله رضى الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من يحرم الرفق يحرم الخير كله » . رواه مسلم . فلما كان صلوات الله وسلامه عليه إمام الداعين ، وسيد المصلحين ، وجب أن يكون أوفرهم حلماً وأحسنهم خلقاً .

وبمثل هذه المعاملة الحسنة اجتمع قلوب أصحابه حوله فتفانوا فى محبته والدفاع عن دعوته بمؤازرته ومناصرته — وليس مايبدو من مخالفة الأصحاب إلا أمور نادرة صورية يبعد كل البعد أن يقصد بها المخالفة ، بل مثارها ، على مايظهر من

فحواها ، إنما هو الرأى والاجتهاد ، كتوقفهم عن التحلل من عمرة الحديبية إلى أن تحلل منها الرسول أمامهم فتابعوه ! وكادوا يقتتلون من تهافتهم على متابعته — وكاستعظامهم لبعض شروط المعاهدة ، حتى قال الفاروق رضوان الله عليه : ألسنا على الحق وهم على الباطل ؟ فلم نعطى الدنية فى ديننا ؟ ثم تبين لهم حسن تصرف النبى وصواب عمله فتابعوه وأثنوا عليه .

وأما مجازاته لمنكر الإحسان بالمزيد ، ومعاملته باللين وعدم التعنيف ، فلأن أعرابياً جاءه يطلب منه شيئاً فأعطاه ثم قال : « أحسنت إليك يا أعرابى ؟ فقال الأعرابى : لا ! ولا أجملتَ . فغضب المسلمون وقاموا إليه ، فأشار إليهم أن كفوا ، ثم قام ودخل منزله وأرسل إلى الأعرابى وزاده شيئا ثم قال . أحسنت إليك ؟ قال نعم ! فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً . فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : إنك قلت ما قلت وفى نفس أصحابى من ذلك شىء ، فإن أحببت فقل بين أيديهم ماقلت بين يدى حتى يذهب مافى صدورهم عليك . فلما كان العشى جاء فقال عليه الصلاة والسلام : إن هذا الأعرابى قال ما قال فزدناه فزعم أنه رضى ، أكذلك ؟ قال الأعرابى : نعم ! فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً » ذكره فى الشفاء وعن الحسن رضى الله عنه : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لايؤاخذ أحداً ولا يَقْرف أحداً ولا يصدق أحداً على أحد — أى لايسمع وشاية الواشين — ويقرف : يعيب ، من قَرَفه إذا عابه .

٨ — تألقه بالصبر على الأذى واحتماله له من أعدائه ، حتى كان فيه المثل الأعلى للدعاة إلى الخير . أوذى فى الله فى نفسه وأصحابه فلم يلحقه جزع ، بل كان شجاعا حكيما ، وصبوراً كريماً ، فكم ناله من أذى المستهزئين وكيد المنافقين ؟ فما لج بالشكوى ، بل كان دأبه الصبر مع التفويض لله تعالى ، حتى جعل له من أمره فرجا وصار يمهد لأصحابه سبيل المهاجرة ، حتى أذن له فيها ، فهاجر وقيض الله له من الأنصار المخلصين من استعان به على نشر دعوته ، وإقامة دينه — نعم أوذى فى

سبيل الدعوة إلى الله حين لم يؤذ أحد فى الله إذ ذاك ، فكان يقابل الأذى بالصبر الجميل ، ويعامل أعداءه بالمداراة ، ويتألفهم بحسن المصانعة ، فكان يقابل الحمق ، والخرق بالحلم والرفق ، والصلف واللجاج بالوداعة والأناة ، وما كان ذلك ليضعف من عزمه فيثنيه عن تبليغ أمر الله والمضى فى سبيله السلمى ؛ بل مافتىء يدعو إلى ربه بالحكمة والموعظة الحسنة ، ويجادل بالتى هى أحسن ، حتى ظهر أمر الله وانتصر عليهم ببدر حين وعده الله إحدى الطائفتين العير أو النفير ، وأمده ربه بخمسة آلاف من الملائكة مسوِّمين — بكسر الواو وفتحها معلمين — فقتل منهم نحو السبعين من بينهم عتبة بن ربيعة داهية الحرب ، وابنه الوليد ! وأخوه شيبة ، وأبو جهل ، وابن مُعَيط ، وغيرهم ممن كانوا يؤذون الرسول وأصحابه ، ويمعنون ويحرضون ولا يستحون — أتظن أنه تشفى منهم بعد ذلك بالتمثيل ؟ كلا : فما جدع لهم أنفاً ، ولا صلم لهم أذنا ، ولا بقر لهم بطنا ، ولا لاك لهم كبدا . وكان كل هذا فى استطاعته — بل أمر بهم فدفنوا فى القليب ، ثم وقف وقفة الآسف يناديهم بأسمائهم : يا عتبةُ بنَ ربيعة ! ياشيبةُ بن ربيعة ! يا أبا جهل ! إلخ ، أيسركم أنكم كنتم أطعتم الله ورسوله فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقا فإنى قد وجدت ما وعدنى ربى حقا » . متفق عليه . وقد أسر منهم نحو هذا العدد — أترى أنه فتك به ليستريح من عنائه والسيوف لم ترد إلى أغمادها ، وقد كانت أرواحهم على شفراتها ؟ كلا ! بل أخذته العاطفة عليهم فقبل الفداء من بعضهم ومنّ على الآخر بغير فداء ؛ حتى عاتبه الله فى شأنهم . وهذا لعمرك من الرحمة والحكمة . أجل ، إن فى صنيعه هذا لسياسة رشيدة ، وحكمة بالغة وعبرة يدق — إلا على من نظر بنور الله — الاعتبار بها .

ذلك أن أتباع الرسول وإن تحمسوا فى ذلك الوقت للانتقام إلا أن منهم من كان يمت للأسرى بالعصبية النسبية . أو بالمصاهرة ، أو بالصداقة القديمة ، وإن مزق الإسلام وقطع كل هذه الصلات ، إلا أن الأتباع كانوا حديثى العهد بالجاهلية فكان من الحكمة ألا يستثير النبى حفيظتهم . وحسبك موقفه صلوات الله وسلامه

عليه فى العفو عن سادة قريش وقد أمكنه الله من رقابهم عند فتح مكة ، فقد انتصر عليهم ووقعوا فى أصفاد الأسر ، ومع هذا منّ عليهم باطلاق سراحهم فقال : « اذهبوا فأنتم الطلقاء » .

ومن سياسته الحكيمة تألفه أصحابه بحسن المعاملة ، ويتجلى هذا فيما نعته به أصحابه من أنه صلوات الله وسلامه عليه كان أوسع الناس صدراً وأصدقهم لهجة ، وألينهم عريكة ، وأكرمهم عشرة ، يؤلف الناس ولا ينفرهم ، ويكرم كريم القوم ويوليه عليهم ، ويتفقد أصحابه ، ويعطى كل أحد من جلسائه نصيبه — من جالسه أو قاربه لحاجة صابره حتى يكون هو المنصرف عنه ، ومن سأله حاجة لم يرده إلا بها أو بميسور القول . وقد وسع الناس بسطه وخلقه ، حتى صار لهم أبا وصاروا عنده فى الحق سواء . وكان دائم البشر سهل الخلق لين الجانب ، ليس بفظ ولا غليظ القلب ولا صخاب (صخب من باب تعب ورجل صخِب وصاخب وصخاب كثير اللغط والجلبة) ولا فاحش ولا عياب ، ولا مداح : فعن أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها أنها قالت : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن الناس خلقا ، ما دعاه أحد من أصحابه ولا أهل بيته إلا قال لبيك » متفق عليه . وعن أنس رضى الله عنه : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم من أشد الناس لطفاً ، والله ما كان يمتنع فى غداة باردة من عبد ولا من أمة ولا صبى أن يأتيه بالماء فيغسل وجهه وذراعيه ، وما سأله سائل قط إلا أصغى إليه أذنه ، فلم ينصرف حتى يكون هو الذى ينصرف عنه ، وما تناول أحد بيده صلى الله عليه وسلم إلا ناوله إياها فلم ينزع حتى يكون هو الذى ينزع » رواه أبو نعيم . وهذا غاية فى حسن المعاملة . وفى أثر آخر عن أنس « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن الناس خلقا ، وإن كان ليخالطنا حتى يقول لأخ لى صغير : « يا أبا عمير ما فعل النغير ؟ » أى ما شأنه وما حاله . متفق عليه . ولا يخفى ما فى المخالطة من دفع الوحشة وتوفر أسباب الألفة — والنغير تصغير نُغَر وهو طائر صغير كالعصفور كان ذلك الصبى

يلعب به فمات . فأراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يواسيه ويمازجه . وعن الصعب ابن جثامة قال : أهديت إلى رسول الله حماراً وحشياً فرده على ، فلما رأى ما فى وجهى قال : « إنا لم نرده عليك إلا لأنا حرم » . متفق عليه . فأى لطف أحسن من هذا ؟ وأى شعور أرق من هذا ؟ وعن جرير بن عبد الله : « ما حجبنى رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ أسلمت ولا رآنى إلا ابتسم فى وجهى ، ولقد شكوت إليه أنى لا أثبت على الخيل فضرب بيده فى صدرى وقال اللهم ثبته واجعله هادياً مهدياً » . متفق عليه . ما حجبنى أى منعنى من الدخول على مجلسه المختص بالرجال . بل كان يرجع عن رأيه إلى رأى بعضهم ويشاورهم فى الأمر فينزل على رأى أقلهم ، كما هو معروف فى غزوة بدر ، أنه نزل منزلا للقتال فقال له الحُباب بن المنذر إن كان بوحى فسمعاً وطاعة ، وإن كان باجتهاد ورأى فليس منزل مكيدة . فقال : « باجتهاد ورأى » ثم ارتحل عنه كما هو مبسوط فى السير — وعن أبى هريرة رضى الله عنه : « ما رأيت أحداً أكثر مشورة لأصحابه من رسول الله صلى الله عليه وسلم » . ولا يخفى مافى مشاورتهم من تطييب نفوسهم وتأليف قلوبهم ، لأنه صلوات الله وسلامه عليه لم يكن بحاجة إلى مشاورتهم بما ينزل عليه من الوحى ، وبما وهبه الله تعالى من نور البصيرة ورجحان العقل ، ولما كان استقلال الولى بالرأى يشعر باستبداده وترفعه وعدم المبالاة بالرعية ، ومن شأن هذا أنه يورث الغضاضة ، ويستثير الحفيظة . ولا سيما من النفوس العربية ، اقتضت شرعته الحكيمة أن يعامل أصحابه بمبدأ الشورى ، ولا سيما فى أمور الجهاد ، إذ أن ذلك يشعرهم بمكانتهم عنده واعترافه بصحة رأيهم وشدة إخلاصهم . عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : لما نزلت هذه الآية (وشاورهم فى الأمر) قال النبى صلى الله عليه وسلم : « إن الله ورسوله غنيان عنها ، ولكن جعلها رحمة فى أمتى ، فمن شاور منهم لم يعدم رشدا ، ومن ترك المشورة منهم لم يعدم غيا » . وقال الحسن رضى الله عنه : قد علم الله أنه ما به إليهم من حاجة . ولكن أراد أن يستن من بعده — وعلى الجملة فالشورى

ركن عظيم من أركان الاجتماع ، فإن الأمة إذا اختارت من بين أفرادها رجالا عرفوا بالفضل وسداد الرأى وحسن تصريف الأمور . وعهدت إليهم بمعاونة الحكام فى سن القوانين ومراقبتهم فى تدبير الشئون ، كان ذلك أقرب إلى الصواب وأبعد عن الخطأ فيها ، وأضمن لرعاية مصالح الرعية وحفظ حقوقهم وعدم الاستبداد فيهم ، ولذا جعل الله الشورى أساساً للحكم فى الإسلام ، وأمر نبيه بها ، وامتدح القائمين بها فى قوله : « وأمرهم شورى بينهم » بل كان يسوسهم بالتنزل معهم إلى أبعد من هذا . روى أنه عليه الصلاة والسلام « كان فى سفر وأمر أصحابه بإصلاح شاة فقال رجل : يا رسول الله على ذبحها ، وقال آخر علىّ سلخها . وقال آخر علىّ طبخها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلىّ جمع الحطب . فقالوا يا رسول الله نكفيك العمل ، فقال علمت أنكم تكفوننى ولكننى أكره أن أتميز عليكم ، وإن الله سبحانه يكره من عبده أن يراه متميزاً بين أصحابه » .

وكان يباسط أصحابه ويمازحهم ، فقد كان رجل يسمى زهيرا يهاديه بما يستطرف من البادية ، وكان الرسول يكافئه بموجود الحاضرة وما يستطرف منها ، ويقول « زهير باديتنا ونحن حاضرته » وجاء يوما إلى السوق فوجد زهيرا قائما فجاءه من قبل ظهره وضمه بيده إلى صدره فأحس زهير أنه الرسول فجعل يمسح ظهره فى صدره رجاء بركته ، فجعل الرسول يقول : « من يشترى العبد ؟ قال زهير : إذن تجدنى كاسدا . فقال عليه الصلاة والسلام : أنت عند الله غال » .

ومن حسن المعاملة أنه كان يدعو أصحابه بكناهم وأحب أسمائهم ، وإذا أتى قوما جلس حيث ينتهى به المجلس ، لا يحب مظاهر التفخيم من القيام والتزلف إليه بزخرف القول ، يؤثر أهل الفضل ويحذر الناس ويحترس منهم دون أن يمنع أحدا منهم بشاشته وبشره ، وكثيراً ما كان يتغافل عما يعافه ويعرض عمن يتكلم بغير الجميل ، ولا يواجه أحداً بما يكره ، أفضلهم عنده أعمهم نصيحة وأكثرهم نفعا للناس ، مجلسه مجلس هدى وعلم وحياء وحلم وأدب وخير ، لا مجال فيه للوشاة والسعاة بالنميمة ،

كما لا تذكر فى مجلسه العيوب — ومع رفقه بجلسائه ونزوله إلى مستواهم كان مهيبا جليلا ، إذا تكلم أطرق جلساؤه كأن على رؤوسهم الطير ، وإذا سكت تكلموا فيما ينفع . ومن تكلم عنده أنصتوا له حتى يفرغ حديثه ، إلى غير ذلك مما لا يتفق مثله للقياصرة والأكاسرة وأكبر الناس رهبة وهيبة . توافرت عنده الأموال فما استأثر منها بدرهم ولا دينار ، بل كان ينفقها فى وجوه الخير والإصلاح ويغنى بها الفاقة من الناس ، وما أكثر ما كان ينفقها فى مصالح المسلمين وكف عدوان المشركين وكسر شوكة المعتدين ، وكثيراً ما كان يبيت على الطَّوَى وعنده الكثير من المال ، فما ينام ولا يهدأ له بال إلا أن يقوم فيقسمه على المستحقين ، ومن لهم فيه أمل ، ثم يعود فينال حظه من النوم — روى أن عمر رضى الله عنه قال فى جمع من الصحابة : إن الله قد كان خص لرسوله فى هذا الفيء شيئاً لم يعطه أحدا غيره ، فقال جل وعز « ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل » الآية ، فكانت خالصة لرسول الله ، والله ما احتازها دونكم ولا استأثر بها عليكم ، ولقد أعطاكموها حتى بقى منها هذا المال . وثبت أن ابنته فاطمة سألته خادما مما أتى به من الرقيق ، وقد أثرت فى يدها الرحى من شدة العمل ، فلم يجبها إلى ما طلبت باعتبارها واحدة من نساء المؤمنين ، وما كان عنده من الرقيق لا يكفى لجميع نساء المؤمنين . ولم يقف فى معاملة أصحابه عند حد القول ، بل كان يقول ويفعل معهم كما يقول : « أنا أولى بكل مؤمن من نفسه ، من ترك مالا فلأهله ، ومن ترك دينا أو ضياعا فإلىّ وعلىّ » رواه مسلم . الضياع بالفتح : العيال — إلى غير ذلك مما حقق به مبادىء الفضيلة والعدالة والمساواة ، وربأهم عليه حتى اجتمعت قلوبهم إليه وملكوه أعنّتها ، بل وهبوه أرواحهم وأموالهم ، يجاهدون بها فى سبيل نشر دعوته وإعلاء كلمة ربه ، صابرين مخلصين .

هديه فى تربية أصحابه على الأخلاق السامية

وذلك يتجلى بكل معانيه فى معاملته لهم على النحو الذى قدمنا ، لأن لهم به أسوة يحرصون عليها الحرص كله ، والأسوة خير مرشد ، على أنه لم يكلهم إلى ذلك فحسب ، بل كان يتعهدهم بالإرشاد إلى الخلال الحميدة . ويمرنهم على الأخذ بها ويشجع المحسن منهم ولو بالكلمة الطيبة حتى تصير ملكة وخلقا ، وحتى يتنافس فيها المتنافسون . من إرشاده إلى الأخلاق الفاضلة قوله : « ثلاث من كن فيه استوجب الثواب واستكمل الإيمان : خلق يعيش به فى الناس ، وورع يحجزه عن محارم الله ، وحلم يرد به جهل الجاهل » . أخرجه البزار من حديث أنس . وقوله : « إن أحبكم إلىَّ وأقربكم منى منزلة يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا ، الموطّئون أكنافا الذين يألفون ويؤلفون » . أخرجه الطبرانى فى الأوسط من حديث أبى هريرة . وعن عبد الله ابن عمرو رضى الله عنه أنه قال : أراد معاذ بن جبل سفراً إلى جهة فقال : يا نبى الله أوصنى ، قال : اعبد الله ولا تشرك به شيئاً قال : زدنى . قال : إذا أسأت فأحسن . قال زدنى . قال : استقم وليحسن خلقك » . أخرجه ابن حبان فى صحيحه . وقوله : « اتق المحارم تكن أعبد الناس ، وارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس ، وأحسن إلى جارك تكن مؤمناً ، وأحب للناس ماتحب لنفسك تكن مسلما ، ولاتكثر الضحك فإن كثرة الضحك يميت القلب » أخرجه الترمذى من حديث أبى هريرة . وقوله : « عفوا تعفّ نساؤكم ، وبروا آباءكم تبركم أبناؤكم » رواه الطبرانى من حديث عائشة . وقوله « مامن شىء بأثقل فى ميزان المؤمن يوم القيامة من خلق حسن ، وإن الله يبغض الفاحش البذى » . أخرجه الترمذى عن أبى الدرداء : البذى بفتح فكسر ثم تشديد الذى يتكلم بالفحش وردىء الكلام . وقوله : « خيار عباد الله الذين إذا رؤا ذكر الله ، وشرار عباد الله المشاؤون بالنميمة المفرقون بين الأحبة ، الباغون للبرءا العيب » رواه أحمد وغيره من حديث عبد الرحمن ابن غنم : « إن خياركم أحسنكم أخلاقا » متفق عليه « إن لله خلقا خلقهم لحوائج

الناس يفزع الناس إليهم فى حوائجهم أولئك الآمنون من عذاب الله » رواه الطبرى وغيره « أحب الأعمال إلى الله عز وجل سرور تدخله على مسلم ، أو تكشف عنه كربة ، أو تطرد عنه جزعاً ، أو تقضى عنه دينا » رواه أبو الشيخ من حديث ابن عمر « إن أطيب الكسب كسب التجار الذين إذا حدثوا لم يكذبوا ، وإذا ائتمنوا لم يخونوا ، وإذا وعدوا لم يخلفوا ، وإذا اشتروا لم يذموا ، وإذا باعوا لم يمدحوا وإذا كان عليهم لم يَمْطلوا ، وإذا كان لهم لم يعسروا » رواه البيهقى من حديث معاذ رضى الله عنه . مطل من باب نصر وعسر غريمه طلب منه الدين على عسرته ، بابه ضرب ونصر ، وعن ابن عباس قال : وقع بين خالد بن الوليد وعمار بن ياسر رضى الله عنهما كلام فقال عمار : لقد هممت بأن لا أكلمك أبداً . فبلغ ذلك النبى صلى الله عليه وسلم فقال : « ياخالد مالك ولعمار ، رجل من أهل الجنة قد شهد بدرا وقال لعمار : إن خالدا ياعمار سيف من سيوف الله على الكفار ، قال خالد : فمازلت أحب عمارا من يومئذ » . « اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن » . رواه الترمذى وقال حسن صحيح . « من سعادة المرء حسن الخلق ، ومن شقاوته سوء الخلق » أخرجه البيهقى فى شعب الإيمان عن جابر ابن عبد الله . « إن هذه الأخلاق من الله ، فمن أراد الله به خيراً منحه خلقاً حسناً ، ومن أراد به شراً منحه خلقاً سيئاً » رواه الطبرانى فى الأوسط من حديث أبى هريرة . « إن الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم ، وإن الله عز وجل يعطى الدنيا من يحب ومن لايحب ، ولايعطى الدين إلا من يحب ، فمن أعطاه الله الدين فقد أحبه ، والذى نفسى بيده لايُسلم عبدٌ حتى يَسلم قلبه ولسانه ، ولايؤمن حتى يأمن جارهُ بوائقه ، قلت يارسول الله ومابوائقه ؟ قال : غَشْمُهُ وظلمه » أخرجه أحمد عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه . الغشم بفتح فسكون الظلم فالعطف تفسير . « ليس منا من لم يرحم صغيرنا ويعرف شرف كبيرنا » رواه أبو داود والترمذى وقال : حسن صحيح . « من أحسن فيما بينه و بين الله كفاه الله

مابينه و بين الناس ، ومن أصلح سريرته أصلح الله علانيته ، ومن عمل لآخرته كفاه الله أمر دنياه » أخرجه الحاكم عن ابن عمرو . وقال أنس رضى الله عنه : « لقد خدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين فما قال لى قط أفٍّ ، ولا قال لشيء فعلته لم فعلته ، ولا لشيء لم أفعله ألا فعلت كذا » . متفق عليه — هذا إلى ماغرسه فى نفوسهم من ملكة النظر والبحث والاستنباط ، إذ لم يكن همه على المعجزات بل توجيه النفوس إلى النظر فى آيات الله فى الأنفس والآفاق — كما سبق .

فنشأ من ذلك (١) معرفة الخالق التى هى رأس المعارف والعلوم اليقينية ، (٢) تقوية غريزة حب النظام والجمال ، وناهيك بجمال الطبيعة . (٣) تربية ملكة تقدير الجمال والنظام والبحث فى الروابط والأسباب ، وفى ذلك تربية الأفكار وتنمية العقول لأن شأنها الميل إلى التعليل والاستنتاج ، وناهيك بتربية العقول والأفكار وما ينشأ عنها من الآثار الحسنة ، ولهذا كان الصحابة ومن بعدهم من السلف الصالح من الشخصيات اليقظة التى لا تخدعها الشعوذة والخرافات والأوهام ، بل قل أن تجد للكهانة بين أبناء الأمة الإسلامية سوقا نافقة كما تجدها فى سائر الديانات ، ذلك أن الإسلام قام على النظر فى البرهان (قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين) — (٤) غرس مبادئ قوة العزم والرأى واستقلال الفكر والاعتماد على النفس ، ولهذا لم يجد النبى صلوات الله وسلامه عليه فى أصحابه ضعفا فى مواقف الجد ، فلم يجد همهم فاترة وعقولهم قاصرة ، كما وجد موسى عليه السلام فى بنى إسرائيل ذلك الخور الفاضح حين ذهب بهم إلى العدو إذا بهم ينكصون على أعقابهم ويخاطبونه بلسان الخائر الجبان (اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون) ألا بعداً لقوم لايؤمنون ، ألهذا كانوا يقترحون الآيات ويمعنون فى طلب المعجزات ؟ كلا لم يجد من أصحابه مثل هذا .

أثر هديه العظيم فى تربية أصحابه

لقد كان لهذه التربية الحكيمة أثرها البالغ فى نفوس الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين — فهذا المقداد بن عمرو يقول لرسول الله صلوات الله وسلامه عليه

حين أخبرهم عن عزمه على لقاء الأعداء فى غزوة بدر : يارسول الله امض لما أمرك الله فنحن معك ، والله لانقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى (اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون) ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون ، فوالله الذى بعثك بالحق لو سرت بنا إلى بَرْك الغماد لجالدنا معك مَن دونه حتى تبلغه . فدعا له بخير — و برك الغماد موضع فى أقصى أراضى هجر .

وهذا سعد بن معاذ سيد الأوس يقول لرسول الله صلوات الله وسلامه عليه مثل ذلك حين قال النبى فى هذا الموقف الرهيب « أشيروا على أيها الناس — يريد الأنصار — لأن العدد فيهم ولأن بيعة العقبة ربما يفهم منها أنه لاتجب عليهم نصرته إلا مادام بين أظهرهم ، فإن فيها (يارسول الله إنا براء من ذمتك حتى تصل إلى دارنا ، فإذا وصلت إلينا فأنت فى ذمتنا نمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا) فقال سعد بن معاذ : كأنك تريدنا يارسول الله . فقال أجل . فقال سعد : قد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ماجئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة ، فامض يارسول الله لما أردت ، فوالذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ، ماتخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا العدو غدا ، إنا لصُبرٌ فى الحرب صُدُق عند اللقاء ، ولعل الله يريك منا ماتقر به عينك ، فسر بنا على بركة الله » . فأشرق وجهه عليه الصلاة والسلام وسر بذلك . نعم قالوا ذلك للرسول عن عقيدة ثابتة وعزيمة صادقة ، لأنهم كانوا مؤمنين عن نظر فى الدليل وتفكير فى البراهين ، فضلا عن نظرهم فى قوة إعجاز البيان ، والنظم الذى جاء به القرآن ، فلهذا وقالوا الإيمان يملأ نفوسهم ، والعقيدة تملك عليهم مشاعرهم وحواسهم « اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون ، فامض يارسول الله لما أمرت » ذلك بعزيمة ماضية لاتهاب الموت ، وأقوى ماتكون العزيمة إذا مازجتها العقيدة وخالطتها بشاشة الإيمان ، ولذلك جاهدوا مع نبيهم حق الجهاد ابتغاء رضوان الله الذى اهتدوا إلى معرفته بعقولهم السليمة ، وكانوا

مخلصين فى جهادهم ، وكانوا صادقين فى إخلاصهم ، وكانوا مؤمنين بحقهم وباطل عدوهم ، وكانوا واثقين بنصرهم لأنهم نصراء الله ، وكان لسان حالهم يقول (قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين) : النصر أو الشهادة ، ولذا كانوا كالجبال الراسيات التى لاتزلزلها العواصف ، بل كانوا كالصواعق على أعداء الله ورسوله ، ولهذا خطوا أول خطوات النصر فى موقفهم هذا يوم بدر ، ثم تتابع النصر وما ضعفوا وما استكانوا لما أصابهم من القرح ، ولا سيما بعد أن آساهم الله فى كتابه بقوله (إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله ، وتلك الأيام نداولها بين الناس) القرح بالفتح والضم الجراح والقتل ولذا ساروا إلى الأمام حتى أعز الله بهم الإسلام وظهرت كلمته على سائر الأديان . وحسب الرسول صلوات الله وسلامه عليه من آثار هديه العظيم هذا الأثر البالغ الذى تجلى بأكمل معانيه فى عزم أصحابه وعلو همتهم ، وحسبه من آثار تربيته إياهم على مبدأ العدالة والمساواة ماتجلى أيضا بأكمل معانيه فى الفاروق عمر ابن الخطاب رضى الله عنه ، وحسبه من آثار تربيته إياهم على قوة الثقة بالله تعالى بالتوكل عليه ورجاء المثوبة عنده ، ماتجلى بأكبر معانيه فى الناسك عثمان رضى الله عنه ، « أما عمر فجاء بنصف ماله حتى دفعه إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال له : ماخلفت وراءك لأهلك ياعمر ؟ قال خلفت لهم نصف مالى . وأما أبو بكر فجاء بماله كله يكاد أن يخفيه من نفسه حتى دفعه إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال له :ماخلفت وراءك لأهلك يا أبا بكر ؟ فقال عدة الله وعدة رسوله فبكى عمر رضى الله عنه وقال : بأبى أنت وأمى ياأبا بكر والله ماستبقنا إلى باب خير إلا كنت سابقنا » . رواه ابن أبى حاتم من حديث عامر الشعبى وعن عبدالرحمن بن خباب قال : شهدت النبى صلى الله عليه وسلم وهو يحث على جيش العُسرة « فقال عثمان بن عفان : يارسول الله علىّ مائة بعير بأحلاسها وأقتابها فى سبيل الله . ثم حض على الجيش فقال عثمان : يارسول الله علىّ مائتا بعير بأحلاسها وأقتابها فى سبيل الله . ثم حض على الجيش فقال عثمان : يارسول الله علىّ ثلاثمائة بعير بأحلاسها وأقتابها فى سبيل الله ، فنزل

رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقول : « ما على عثمان ما عمل بعد هذا » . أخرجه أحمد والترمذى . والأحلاس جمع حلس : وهو كساء يُجعل على ظهر البعير تحت رحله — والقتب غطاء يوضع على ظهر البعير كالإكاف لعيره وما إلى هذا مما لا نطيل به والله الهادى إلى سواء السبيل .

كتبه صلى الله عليه وسلم ورسله إلى الملوك والأمم

لقد سن لنا رسول الله صلوات الله وسلامه عليه سنة حسنة بمكاتبته الملوك والأمراء ، وأمرهم أن يبلغوا أممهم ، فنذكر كتبه إلى الملوك والأمراء لتكون عوناً للدعاة العاملين ، ونبراساً للهداة المرشدين ، فنقول : بعد رجوع المسلمين من الحديبية فى أواخر السنة السادسة من الهجرة ، كاتب صلوات الله وسلامه عليه ملوكَ الأرض يدعوهم إلى الإسلام ، واتخذ إذ ذاك خاتماً من فضة يختم به خطاباته وكان نقشه (محمد رسول الله) فوجه دحية الكلبى بكتاب إلى قيصر ملك الروم وأمره أن يدفعه إلى عظيم بصرى ليوصله إلى الملك ، وكان فى الكتاب على ماثبت فى الصحيحين :

« بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى هِرَقْلَ عظيم الروم . سلام عَلَى من اتبع الهدى . أما بعد فإنى أدعوك بدعاية الإسلام ، أَسْلِم تَسْلَم : أَسْلِم يؤتك الله أجرك مرّتين . فإن توليتَ فإن عليك إثم الأريسيِّين ، ويا أهل الكتاب تعالَوْا إلى كلمة سواء بيننا و بينكم ألا نعبدَ إلا الله ولا نشركَ به شيئاً ولا يتخذ بعضُنا بعضاً أرباباً من دون الله ، فإن تَوَلّوا فقولوا أشهدوا بأنا مسلمون » . سلام عَلَى من اتبع الهدى . معناه سلم من عذاب الله من أسْلم ، فليس المراد به التحية ، وإن كان اللفظ يشعر به ، لأنه لم يُسْلم فليس هو ممن اتبع الهُدَى : الأريسيِّين جمع أريسى نسبة إلى أريس كفعيل وهو الفلاح ، بصده إياهم عن الإسلام (ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا) أى عليك مثل إثمهم .

حديث أبي سفيان

ولما وصل هذا الكتاب قيصر قال انظروا لنا أحداً من قومه نسأله عنه — وكان أبوسفيان بن حرب بالشام مع رجال من قريش فى تجارة — فجاءت رسل قيصرَ لأبى سفيان ودعوه لمقابلة الملك فأجاب ، ولما قدموا عليه فى القدس قال لترجمانه : سلهم أيهم أقرب نسباً بهذا الرجل الذى يزعم أنه نبى ؟ فقال أبوسفيان : أنا — لأنه لم يكن فى الركب من بنى عبد مناف غيره — فقال قيصر : أدن منى ، ثم أمر بأصحابه فجعلوا خلف ظهره ثم قال لترجمانه : قل لأصحابه إنما قدمت هذا أمامكم لأسأله عن هذا الرجل الذي يزعم أنه نبى ، وقد جعلتكم خلفه كى لا تخجلوا من رد كذبه عليه إذا كذب ، ثم سأله : كيف نسب هذا الرجل فيكم ؟ قال : هو فينا ذو نسب ، قال : هل تكلم بهذا القول أحد منكم قبله ؟ قال لا ، قال هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قال لا ، قال : فهل كان من آبائه من ملك ؟ قال لا ، قال فأشراف الناس يَتَّبِعُونَه أم ضعفاؤهم ؟ قال بل ضعفاؤهم . قال هل يزيدون أم ينقصون ؟ قال بل يزيدون . قال هل يرتد أحد منهم سَخْطَةً لدِينه بعد أن يدخل فيه ؟ قال لا ، قال : هل يغْدِر إذا عاهد ؟ قال لا ، ونحن الآن منه فى ذمة لا ندرى ما هو فاعل فيها ، قال : فهلْ قاتلتموه ؟ قال نعم ، قال فكيف حربكم وحربه ؟ قال الحرب بيننا و بينه سِجَال مرة لنا ومرة علينا . قال فبم يأمركم ؟ قال : يقول اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئاً وينهى عما كان يعبد آباؤنا ، ويأمر بالصلاة والصدق والعفاف والوفاء بالعهد وأداء الأمانة ، فقال الملك : إنى سألتك عن نسبه فذكرت أنه فيكم ذو نسب ، وكذلك الرسل تبعث فى نسب قومها ، وسألتك هل قال أحد منكم هذا القول قبله ، فذكرت أن لا . فقلت لو كان أحد قال هذا القول قبله لقلت رجل يأتسى بقول قيل قبله . وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ، فذكرت أن لا ، فقلتُ ما كان ليذر الكذب على الناس ويكذبَ على الله ، وسألتك هل كان من آبائه من ملك ،

فذكرت أن لا ، فقلتُ لو كان من آبائه ملك لقلتُ رجل يطلب مُلْك أبيه ، وسألتك أشراف الناس يتَّبعونه أم ضعفاؤهم فقلت ضعفاؤهم وهم أتباع الرسل وسألتُك هل يزيدون أم ينقصون ، فذكرت أنهم يزيدون ، وكذلك أمر الإيمان حتى يتم ، وسألتك هل يرتد أحد منهم سَخْطَةً لدينه ، فقلتَ لا ، وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشتُه القلوب ، وسألتُك هل قاتلتموه ، فقلتَ نعم ، وإن الحرب بينكم وبينه سِجَال ، وكذلك الرسل تُبْتَلى ثم تكونُ لهم العاقبة ، وسألتك بماذا يأمركم ، فذكرتَ أنه يأمر أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وينهاكم عن عبادة الأوثان ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف والوفاء بالعهد وأداء الأمانة ، وسألتك هل يغدر ؟ فذكرتَ أن لا ! وكذلك الرسلُ لا تَغْدِرُ ، فعلمتُ أنه نبي ، وقد علمتُ أنه مبعوث ولم أظن أنه منكم ، وإن كان ما كلمتني به حقاً فسَيَمْلِكُ موضع قَدَمَيَّ هاتين ، ولو أعلم أني أخلُصُ إليه لتجشمت لقاءه ، ولو كنتُ عنده لغسلت قدميه . قال أبو سفيان : فعلت أصوات الذين عنده وكثر لغطهم ، فلا أدري ما قالوا ، وأمر بنا فأخرجنا ، فلما خرج أبو سفيان مع أصحابه قال : لقد بلغ أمر ابن أبي كبشة أن يخافه ملك بني الأصفر ، فما زلتُ موقناً أنه سيظهر حتى أدخل الله عليَّ الإسلام » . ولما سار قيصر إلى حمص جمع عظماء الروم في قصر له فيها ، وأمر بالأبواب فأغلقت ، ثم أطل عليهم فقال : يامعشر الروم هل لكم في الفلاح والرشد ؟ وأن يثبت ملككم فتبايعوا هذا النبي . فحاصوا حَيْصَةَ حُمُر الوحش إلى الأبواب فوجدوها مغلقة ، فلما رأى قيصر نفرتهم ويئس من الإيمان قال ردوهم عليَّ ، فقال لهم إني قلت مقالتي أختبر بها شدتكم على دينكم فقد رأيت ، فسجدوا له ورضوا عنه ، فكان هذا آخر شأن هِرَقْل ، فغلبه حب الملك على الإسلام فذهب بإثمه وإثم رعيته ، ولكنه رد دحْيَة رداً جميلا — حاصوا . نفروا —

وكتب إلى النجاشي : « بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى النجاشي ملك الحبشة ، أسلم أنتَ فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن وأشهدُ أن عيسى بنَ مريمَ روحُ اللهِ وكلمتُه ألقاها إلى مريم

البتول[1] الطيبة الحصينة ، فحملت بعيسى فخلقه الله من روحه ونفخه كما خلق آدم بيده ، وإنى أدعوك إلى الله وحده لا شريك له ، والموالاة على طاعته وأن تتبعنى وتؤمن بالذى جاءنى فإنى رسول الله ، وإنى أدعوك وجنودك إلى الله عز وجل وقد بلّغتُ ونصحتُ فاقبلوا نصيحتى والسلام على من اتبع الهدى » .

وقد بعث صلوات الله وسلامه عليه بهذا الكتاب مع عمرو بن أمية الضمرى فقال للنجاشى : يا أصحمةُ إن علىّ القول وعليك الاستماع ، إنك كأنك فى الرقة علينا وكأنا فى الثقة بك منك ، لأنا لم نظن بك خيراً قط إلا نلناه ، ولم نخفك على شىء قط إلا أمنّاه وقد أخذنا الحجة عليك من فيك ، الإنجيل بيننا و بينك شاهد لا يُردّ ، قاضٍ لا يجور ، وفى ذلك الموقع الحزُّ و إصابة المفصل ، و إلا فأنت فى هذا النبى الأمى كاليهود فى عيسى بن مريم ، وقد فرّق النبى صلى الله عليه وسلم رسله إلى الناس فرجاك لما لم يرجهم له ، وأمّنك على ما أخافهم عليه ، بخيرٍ سالفٍ وأجرٍ يُنتظر . فقال النجاشى : أشهد بالله إنه النبى الأمىُّ الذى ينتظره أهل الكتاب ، وأن بشارة موسى براكب الحمار كبشارة عيسى براكب الجمل ، وأن العيان ليس بأشفى من الخبر . ثم كتب النجاشى جواب كتاب النبى صلى الله عليه وسلم : إلى محمد رسول الله من النجاشى أصحمة ، سلامٌ عليك يا نبى الله من الله ورحمة الله و بركات الله الذى لا إله إلا هو ، أما بعد فقد بلغنى كتابك يا رسول الله فيما ذكرت من أمر عيسى ، فو رب السماء والأرض إن عيسى لا يزيد على ما ذكرتَ تَفْرُوقا ، إنه كما ذكرتَ وقد عرفتُ ما بعثتَ إلينا ، وقد عرفنا ابن عمِّك وأصحابَه فأشْهَدُ أنك رسول الله صادقاً مصدّقاً . وقد بايعتُكَ و بايعتُ ابنَ عمك وأسلمت على يديه لله رب العالمين . والتَّفروق غلافة بين النواة والقشر .

وكتب صلى الله عليه وسلم إلى كسرى ملك الفرس : « بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس ، سلامٌ على من اتّبع الهدى وآمن بالله

---

(١) البتول من النساء العذراء المنقطعة من الأزواج وقيل المنقطعة إلى الله تعالى عن الدنيا

ورسوله وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله ، أدعوك بدعاية الله فإنى أنا رسول الله إلى الناس كافة « لينذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين » ، أسْلِمْ تَسْلَمَ فإن أبيت فعليك إثمُ المجوس . فلما قرأ عليه الكتاب مزقه ، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : مزق الله ملكه . وقد فعل فكانت مملكته أقرب الممالك سقوطاً ، وقد بدأ هذا الشقى بالعدوان فأرسل لعامله باليمن أن يوجه إلى الرسول من يأتى به إليه ، فعاجله الله بقيام ابنه شيرويه عليه وقتله له ، ثم أرسل لعامل اليمن ينهاه عما أمره به أبوه — وكان الحامل لكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى كسرى عبد الله بن حذافة السهمى .

وكتب صلوات الله وسلامه عليه إلى المقوقس أمير مصر من جهة قيصر : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد عبد الله ورسوله إلى المقوقس عظيم القبط ، سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد ؛ فإنى أدعوك بدعاية الإسلام أسلم تسلم وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فعليك إثم القبط ، يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا و بينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » . وبعث به صلوات الله وسلامه عليه مع حاطب بن أبى بلتعة ، فلما دخل على المقوقس قال له : إنه كان قبلك رجل يزعم أنه الرب الأعلى ، فأخذه الله نكال الآخرة والأولى ، فانتقم به ثم انتقم منه ، فاعتبر بغيرك ولا يعتبر غيرك بك . فقال : إن لنا ديناً لن ندعه إلا لما هو خير منه . فقال له حاطب : ندعوك إلى الإسلام الكافى به الله فقد ما سواه ، إن هذا النبى دعا الناس فكان أشدهم عليه قريش وأعداهم له اليهود ، وأقربهم منه النصارى ، ولعمرى ما بشارة موسى بعيسى إلا كبشارة عيسى بمحمد ، وما دعاؤنا إياك إلى القرآن إلا كدعائك أهل التوراة إلى الإنجيل وكل نبى أدرك قوماً فهم أمته ، فالحق عليهم أن يطيعوه ، وأنت ممن أدركه هذا النبى ، ولسنا ننهاك عن دين المسيح ولكنا نأمرك به . فقال المقوقس : إنى نظرت فى أمر هذا النبى فوجدته لا يأمر

يزهود فيه ، ولا ينهى عن مرغوب فيه ، ولم أجده بالساحر الضال ، ولا الكاهن الكاذب ، ووجدت معه آية النبوة بإخراج الخبأ ، والأخبار بالنجوى ، — الخبأ : ما خفى فى غيره ، وإخراجه : إظهاره . والنجوى : السر . — وسأنظر . وأخذ كتاب النبى صلى الله عليه وسلم فجعله فى حُق من عاج وختم عليه ودفعه إلى جارية له ، ثم دعا كاتباً له يكتب بالعربية فكتب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم : « بسم الله الرحمن الرحيم ، لمحمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط . سلام عليك أما بعد ؛ فقد قرأت كتابك وفهمت ما ذكرت فيه وما تدعو إليه ، وقد علمت أن نبياً بقى ، وكنت أظن أنه يخرج بالشام ، وقد أكرمت رسولك وبعثت إليك بجاريتين لهما مكان عظيم فى القبط ، وبثياب وأهديت إليك بغلة لتركبها والسلام عليك » ؛ ولم يسلم . وإحدى الجاريتين مارية التى تسرى بها عليه الصلاة والسلام جاء منها بولده إبراهيم ، والأخرى سيرين أعطاها لحسان بن ثابت رضى الله عنه . والبغلة دُلدل بقيت إلى زمن معاوية رضى الله عنه .

روى أن المقوقس أمير مصر من جهة قيصر وكان عظيم القبط أرسل بعثة إلى المسلمين ليخبروه عن حالتهم الدينية فلما رجعوا إليه عنهم كيف رأيتموهم قالوا رأينا قوما الموت أحب إليهم من الحياة ، والتواضع أحب إلى أحدهم من الرفعة . ليس لأحدهم رغبة فى الدنيا ولا بهجة أميرهم كواحد منهم ما يعرف رفيعهم من وضيعهم ولا السيد منهم من العبد ، وإذا حضرت الصلاة لم يتخلف عنها منهم أحد يغسلون أطرافهم بالماء ويخشعون فى صلاتهم ، وهنا قال المقوقس والذى يحلف به : لو أن هؤلاء استقبلوا الجبال لأزالوها وما يقوى على قتال هؤلاء أحد هذا وصف المسلمين أيام كانوا فى عزة الإسلام عاملين به واقفين عند حدوده فسادوا العالم برسائلهم .

كتابه صلوات الله وسلامه عليه إلى المنذر بن ساوى

بعث رسول الله صلوات الله وسلامه عليه العلاء بن الحضرمى بكتاب إلى المنذر ابن ساوى ملك البحرين يدعوه فيه إلى الإسلام وفيه : « بسم الله الرحمن الرحيم »

أسلم أنت فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو ، أما بعد : فإن من صلى صلاتنا واستقبل قبلتنا وأكل ذبيحتنا فذلك المسلم له ذمة الله وذمة الرسول ، من أحب ذلك من المجوس فإنه آمن ، ومن أبى فعليه الجزية » . فأسْلَمَ وكتب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . أما بعد : يا رسول الله فإنى قرأت كتابك على أهل البحرين فنهم من أحب الإسلام وأعجبه ودخل فيه ، ومنهم من كرهه ، و بأرضى مجوس ويهود فأحدث إلى فى ذلك أمرك .

فكتب إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم : « بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى المنذر بن ساوى ، سلام عليك فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، (أما بعد) فإنى أذكِّرُكَ اللهَ عز وجل فإنه من ينصح فإنما ينصح لنفسه ، و إنه من يطع رسلى و يتَّبعْ أمرهم فقد أطاعنى ومن نصح لهم فقد نصح لى ، و إن رسلى قد أثنَوْا عليك خيراً ، و إنى قد شَفَّعْتُكَ فى قومك فاترك للمسلمين ما أسلموا عليه وعفوتُ عن أهل الذنوب فاقْبَلْ منهم . و إنك مهما تُصْلِح فلن نَعْزِلَكَ عن عملك ، ومَن أقام على يهودية أو مجوسية فعليه الجزية » .

كتابه صلوات الله وسلامه عليه إلى مَلِكَىْ عُمَان

وكتب صلى الله عليه وسلم إلى مَلِكَىْ عُمان كتابا و بعثه مع عمرو بن العاص وفيه : « بسم الله الرحمن الرحيم من محمد بن عبد الله إلى جَيفرَ وعَبْدِ ابْنَى الجلَنْدِى سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد فإنى أدعوكما بدعاية الإسلام اسْلِما تَسْلَمَا فإنى رسول الله إلى الناس كافة لأنذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين إنكما إن أقررتما بالإسلام ولَّيتكما . و إن أبيتما أن تقرا بالإسلام فإن ملككما زائلٌ عنكما وخيلٌ تَحلُّ بساحتكما وتظهرُ نبوتى على ملككما » كتبه أبى بن كعب وختم الكتاب . قال عمرو : فخرجت حتى انتهيت إلى عُمَانَ ، فلما قدمتها عَمَدت إلى عَبْدٍ — وكان أحلم الرجلين وأسهلهما خلقا — فقلتُ : إنى رسولُ رسولِ الله صلى الله

عليه وسلم إليك و إلى أخيك ، فقال : أخى المقدم على بالسنّ والملك، وأنا أوَصلك إليه حتى يقرأ كتابَك . ثم قال : وماتدعو إليه ؟ قلتُ أدعوك إلى الله وحده لاشريك له ، وتَخلَع ما عُبِدَ من دونه وتشهد أن محمداً عبده ورسوله . قال : ياعمرو إنك ابن سيد قومك فكيف صنع أبوك فإن لنا فيه قدوة ؟ قلت مات ولم يؤمن بمحمد صلى الله عليه وسلم ، ووددْت أنه كان أسلم وصدق به ، وقد كنت أنا على مثل رأيه حتى هدانى الله للإسلام . قال فمتى تَبِعْته ؟ قلت : قريباً . فسألنى أين كان إسلامك ؟ قلت عند النجاشى ! وأخبرته أن النجاشى قد أسلم ، قال فكيف صنع قومه بملكه ؟ فقلت : أقروه واتبعوه . قال والأساقفة والرهبان تبعوه ؟ قلت نعم . قال : انظر ياعمرو ما تقول إنه ليس من خصلة فى رجل أفضَحَ له من الكذب . قلت : ما كذبت وما نَسْتَحله فى ديننا . ثم قال : ما أرى هِرَقْلَ علم بإسلام النجاشى . قلت بلى ! قال بأى شىء علمت ذلك ؟ قلت : كان النجاشى يُخْرِجُ له خَرْجا ، فلما أسلم وصدق بمحمد صلى الله عليه وسلم قال : لا والله لو سألنى درهماً واحداً ما أعطيته . فبلغ هرَقْلَ قوله فقال له النَّيَّاق أخوه : أتَدَع عبدك لا يخرج لك خرجا ويدين بدين غيرك دينا محدثا ؟ قال هرقل ؟ رجل رغب فى دين فاختاره لنفسه ما أصنع به ، والله لولا الضن بملكى لصنعت كما صنع . قال انظر ما تقول ياعمرو . قلت : والله صدقتك . قال عبد : فأخبرنى ما الذى يأمر به وينهى عنه ؟ قلت يأمر بطاعة الله عز وجل وينهى عن معصيته ويأمر بالبر وصلة الرحم ، وينهى عن الظلم والعدوان وعن الزنا وعن الخمر وعن عبادة الحجر والوثن والصليب . قال : ما أحسن هذا الذى يدعو إليه ؟ لو كان أخى يتابعنى عليه لركبنا حتى نؤمن بمحمد ونصدق به ، ولكن أخى أضن بملكه من أن يدعه ويصير ذنَباً . قلت : إنه إن أسلم ملَّكه رسول الله صلى الله عليه وسلم على قومه فأخذ الصدقة من غنيهم فيردها على فقيرهم ، قال إن هذا لخلق حسن وما الصدقة ؟ فأخبرته بما فرض رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الصدقات فى الأموال حتى انتهيت إلى الإبل ، قال ياعمرو :

تؤخذ من سوائم مواشينا التي ترعى الشجر وترد المياه ؟ فقلت : نعم ! فقال : والله ما أرى قومى فى بعد دارهم وكثرة عدوهم يطيعون لهذا . قال فمكثت ببابه أياما وهو يصل إلى أخيه فيخبره كل خبرى ، ثم إنه دعانى يوما فدخلت عليه فأخذ أعوانه بِضَبْعَىَّ — الضبع وسط العضد أو ما تحت الابط — فقال دعوه ، فأرسلت فذهبت لأجلس فأبوا أن يدعونى أجلس ، فنظرت إليه قال تكلم بحاجتك ، فدفعت إليه الكتاب مختوما ففض خاتمه وقرأ حتى انتهى إلى آخره ثم دفعه إلى أخيه فقرأه مثل قراءته ، إلا أنى رأيت أخاه أرق منه ، قال : ألا تخبرنى عن قريش كيف صنعت ؟ فقلت : تبعوه إما راغب فى الدين وإما مقهور بالسيف . قال : ومن معه ؟ قلت الناس قد رغبوا فى الإسلام واختاروه على غيره وعرفوا بعقولهم مع هدى الله إياهم أنهم كانوا فى ضلال ، فما أعلم أحداً بقى غيرك فى هذه الخرجة ، وأنت إن لم تسلم اليوم وتتبعه نُوطِّئْكَ الخيلَ وتَبيدُ خضْراك ، فأسلم تَسلم ويستعملك على قومك ولا تدخل عليك الخيل والرجال . قال : دعنى يومى هذا وارجع إلى غداً . فرجعت إلى أخيه فقال : ياعمرو إنى لأرجو أن يسلم إن لم يضن بملكه ، حتى إذا كان الغد أتيت إليه فأبى أن يأذن لى فانصرفت إلى أخيه فأخبرته أنى لم أصل إليه فأوصلنى إليه ، فقال : إنى فكرت فيما دعوتنى إليه فإذا أنا أضعف العرب إن ملكت رجلا ما فى يدى وهو لا تبلغ خيله هنا ، وإن بلغَت خيله ألفَت قتالا ليس كقتال من لاقى . قلت : وأنا خارج غداً . فلما أيقن بمخرجى خلا به أخوه فقال : ما نحن فيما ظهر عليه ؟ وكل من أرسل إليه قد أجابه . فأصبح فأرسل إلى فأجاب إلى الإسلام هو وأخوه جميعاً . وصدق النبى صلى الله عليه وسلم ، وخليا بينى وبين الصدقة وبين الحكم فيما بينهم ، وكانا لى عونا على من خالفنى .

كتابه صلى الله عليه وسلم إلى ملك اليمامة

« بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى هَوْذَة بن على ، سلام على من اتبع الهدى واعلم أن دينى سيظهر إلى منتهى الخف والحافر — الخف للبعير والحافر للفرس ويطلقان عليهما ، والمراد إلى غاية ما تصل إليه قوتى — . فأسلم تسلَم

وأجعل لك ما تحت يديك » . وقد بعث بهذا الكتاب مع سليط بن عمرو العامرى فأكرم هوذةُ وفادتَه وكتب إلى رسول الله صلوات الله وسلامه عليه : ما أحسنَ ما تدعو إليه وأجملَه ، وأنا شاعر قومى وخطيبُهم ، والعرب ، تهاب مكانى ، فاجعل إلىَّ بعض الأمر أتَّبعْك . وأجاز سليطا بجائزة وكساه أثوابا من نسج هجر . فقدم بذلك كله إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره . وقرأ النبى صلوات الله وسلامه عليه كتابه فقال : « لو سألنى سبَّابة من الأرض ما فعلت ، بادَ وبادَ ما فى يديه » فلم يلبث أن مات منصرف الرسول صلى الله عليه وسلم من فتح مكة . وكان صلوات الله وسلامه عليه يولى على كل قوم قبلوا الإسلام كبيرهم .

كتابه صلى الله عليه وسلم إلى الحارث بن أبى شمَّر

وقد وجه صلوات الله وسلامه عليه شجاع بن وهب إلى أمير دمشق من قِبَل هِرقلَ الحارث بن أبى شَمَّر الغسَّانى ، وكان يقيم بغوطتها ، وفيه « بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى الحارث بن أبى شمر سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله وصدق ، وإنى أدعوك أن تؤمن بالله وحده لا شريك له يبق ملكك » فلما قرأ الكتاب رمى به وقال : من ينزع ملكى منى . واستعد ليرسل جيشاً لحرب المسلمين ، وقال لشجاع : أخبر صاحبك بما ترى . ثم أرسل إلى قيصر يستأذنه فى ذلك وصادفَ أن كان دحية عنده فكتب قيصر إليه يَثْنيه عن هذا العزم ، فلما رَأى الحارث كتاب قيصر صرفَ شجاعَ بن وهب بالحسنى ووصله بنفقة وكسوة .

وبعث صلى الله عليه وسلم أبا موسى الأشعرى ومعاذ بن جبل إلى اليمن داعيين إلى الإسلام فأسلم عامة أهلها طوعا من غير قتال — ثم بعث بعد ذلك علىَّ بن أبى طالب إليهم ووافاه بمكة فى حجة الوداع — وبعث المهاجرَ بن أبى أميةَ المخزومى إلى الحارث بن عبد كلال الحميرى باليمن ، فقال : سأنظر فى أمرى — وبعث جرير بن عبد الله البَجَلىّ إلى ذى الكلاع الحميرى وذى عمرو يدعوهما إلى الإسلام فأسلما وتوفى رسول الله صلوات الله وسلامه عليه وجرير عندهم .